قاع الصورة، في مشهدية الألم والجوع: قراءة في ومضة "جوع" لمحمد المسلاتي

هيفاء حمودة

"بقايا قنابل، جدران متهاوية، عند القمامة قفز ملتقطاً عظمة نيئة، قبل أن ينحني العجوز الهزيل."

نقف من خلال هذه السطور عند لقطة إنسانية استوقفت الكاتب، فرسمها بمشاعر الحروف المغروسة في عصب الألم الذي أحاط بالمشهد.

الصورة هي هي، يتردد صداها في كل زوايانا الممتدة عبر المساحات الأرضية الواسعة، في كل درب من دروب الأوطان المأهولة بالعذاب والألم. مساحات حطَّ عندها غراب أسود ليرسمَ ربيعاً أخضرَ، لكنَّ الألوان المفعمة بالضوء انعكست لتشكل ألوان الموت والفقر والتشرد والجوع.

لعلها لقطة مؤلمة حقاً؛ لأن الكاتب رسم من خلالها أجزاء المشهد بدقة وحرفية بالغتين. لنتفحص ماذا تقول الصورة المروعة في كل جزء من أجزائها قبل أن تكتمل في لوحتها الواقعية؟ "بقايا قنابل"؛ إنه أثرٌ لفعل قامت به آلة الحرب المدمّرة، فماذا كانت آثارها؟... قطعٌ من شرّ أسودَ بعين عمياء، تناثر عشوائياً في كل

مكان ففعل فعلته، وتركت الحرب بقاياها السوداء نثراً هنا، وقطعاً هناك. حطام متهاوٍ إلى أسفل الشقاء، مشهد تستطيع أن تتخيله جيداً، فهو ماثل أمام عيون الجميع، مشهدٌ واحدٌ؛ وكأنه بصمة واحدة لصورة وزعت في كل الأنحاء. حالٌ جعل الكثيرين ممن تاهوا في ملكوت أرض الخراب وتوزعوا في أركان الحياة، لكأنهم يبحثون عن لقمة عيشهم هناك عند بقايا القمامة الراشحة بعضاً من الفتات، أو بعضاً من اللحم الذي قد يتناثر من بقايا أحد ما.

(جدران متهاوية) لقد فعلت آلة الحرب فعلتها، فالجدران كانت في معنى من المعاني الحاضن الأمين للإنسان، المأوى الذي يَهَبُ الراحة والإحساس بالإنسانية وكنه الوجود، فماذا عنه وقد تهاوى وهجره أهله؟ أو ربما تهاوى فوق رؤوسهم فأصبحوا بلا مأوى هائمون على وجوههم. بعد رسم الحالة ذات المؤشرات الزمنية التي تواجدت في حيزها الشخصية، انتقل الكاتب ليرسم تواجد تلك الشخصية (الرمز) في الجزء المتمم لهذه اللوحة، وذلك من خلال إطار (المكان). ونستطرد مع الكاتب: (عند القمامة قفز ملتقطاً عظمة نيّئة) صورة الإنسان الباحث عن لقمة يسدّ بها جوعه، العجوز الذي لا حول له ولا قوة سوى البحث هنا وهناك عن بصيص أمل بالحياة من خلال لقمة يجدها أو مكان يأوي إليه. بنظرته الباحثة عن مخلفات القمامة يفاجئنا الكاتب بالفعل (قفز)...

قفز المحروم المشتاق وقد عثر بين البقايا على ما اشتهته نفسه، وتاقت إليه روحه، وقد أعجزه الزمان عن تذوقه. قفز الرجل إلى عظمة من أخس صفاتها أنها نيئة، على حين رسم الكاتب هنا سخرية مؤلمة لمواقف الإنسان مع أشكال الحياة المختلفة. تاق إلى "اللحم" الذي لن يستطيع الحصول عليه، فما كان منه إلا أن (يقفز) هذه الوثبة التي لم تكن إلا تعبيراً عن الفرح والمفاجأة. و(الفعل قفز) هو عين المفارقة المؤلمة، وهذه القفزة المعبرة عن فرحة داخلية لشيء تتمناه النفس الباحثة عن أمنية ما، ربما كانت تحصل عليه في أوقات سابقة قبل مجيء هذا المدّ القاتل الذي بدّل أشياءَ وأشياء.

في تأويل آخر؛ قد يكون البحث عن قطعة خبز ليس موسوماً بسد الجوع فقط، بل ربما يكون البحث عن شيء ما عاد متوفراً، أو أنه رمزٌ لرحيل الناس عن المكان، فالعظْمة نيئة وربما تكون لحيوان ما. والقفز لرجل عجوز هزيل يدلّ على الحالة النفسية التي هزتها المفاجأة بعد صعودها من خلال النظر، وتجمعت في نفس الشخصية وقد هتفت من داخلها وكأنها حققت أمنيتها.

(ينحني) فعل آخر يدل على الحركة التي قامت بها الشخصية، والتي ربما تعبر عن معنى سلبي أراده الكاتب، كدلالة

اضطرار الرجل العجوز الهزيل للخضوع لهذا الشيء الوضيع حاملاً في معناه هنا، وفي هذا المكان دلالته المؤلمة.

في جولة سريعة على بعض الدلالات، نجد "أن التأليف الصوري للفظ يرسم القيمة الدلالية للمعنى"، فالفعل (قفز) يحمل في حروفه الثلاثية معنى الاضطراب والحركة. وكذلك في بعض معاني الصورة كـــ (بقايا قنابل) التي توحي برمز صارخ عن حدث أضرّ البلاد (المكان) وبالتالي فقد آذى الناس. (جدران متهاوية) تبدو هنا الصورة وقد تساقطت الجدران واحداً بعد الآخر أو كهذا يُتَخَيَّلُ المشهد، وبهذه الكلمة رسم الكاتب المشهد الحزين.

أما بقايا الدمار، وبقايا الطعام: فعنت رمزاً للحالة الشعورية التي تصدى لها الكاتب عندما أراد الإشارة إلى الدلالة الواقعية الموجودة في المشهد الحقيقي، وتكتمل أجزاء الصورة لتشكل لوحة مؤلمة لمشهد قاس ضمن تكثيفٍ له جمالياته الخاصة بالومضة القصصية.